الرؤية الصوفية في المولدات النبوية

على عهد الدولة الزيانية(633/957هـ)

الأستاذ الدكتور: حبار مختار

جامعة وهران

مقدمة:

كانت المنظومة الشقراطيسية أظهر قصيدة أخرجت للناس في القرن الخامس الهجري تحتفي بإحياء المولد النبوي الشريف، احتفاء لم يسبق له مثيل في المدائح النبوية، تمجد مناقب الرسول "صلى الله عليه و سلم"، ظاهرا وباطنا، شريعة وحقيقة، أخرجها للناس الفقيه الأديب "**أبو محمد الشقراطيسي**" نسبة إلى شقراطيس، وهو قصر قديم من قصور قفصة في تونس، والمتوفى سنة 466 هجرية، و قد بلغت القصيدة من الطول ما نيف عن المائة والثلاثين بيتا، فصارت بذلك مثالا يحتذى في شكلها ومضمونها عند من جاء بعده من الشعراء الذين كلفوا بإنشاء المولديات النبوية وتلحينها وإنشادها في المحافل الرسمية التي أصبحت تقام بالمناسبة في الحواضر الإسلامية[1].

وكان الإمام أبو العباس العزفي من آل العزفي الحاكمين لمدينة سبثة وبعض أحوازها أول من شرع في كتابه: (**الدر المنظم في مولد النبي المعظم**) شرعة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وأدرجه ضمن الأعياد الرسمية التي تحتفل بها الدولة سنويا كعيدي الفطر والأضحى، وكان ذلك في نحو القرن السابع الهجري عقب انكسار دولة الموحدين في الأندلس وتداعي سقوط أركانها في بلاد المغرب لينتهي دورها سنة668 هجرية، وقد رضي الناس بشرعة العزفي فاقتفوا سنته، وتقلدوا منته في الإمارة تعظيما للجناب المحمدي عليه الصلاة والسلام، ثم إن ذلك انتقل منهم إلى ملوك بني الأحمر النصريين في الأندلس، وإلى ملوك المغرب

من بني مرين، وإلى ملوك بني زيان على عهد أبي حمو موسى الثاني(ت791هـ) في تلمسان، وملوك آل عثمان بعدهم في الجزائر، وقد توسع الاحتفال بمولده صلى الله عليه و سلم بصفة رسمية في نحو القرنين السابع والثامن في حواضر الإسلام كلها كمصر والشام والهند وغيرها[2].

ويبدو من المقدمة التي قدم بها **"أبو العباس العزفي"** لكتابه السابق، أن الدواعي التي دعته إلى سن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف مردها الأساسي مربوط بالواقع المعيش الذي أصبح العزفي يشاهده ويسمع عنه باستنكار وهو المشاركة العلنية للمسلمين على كثرتهم للمسيحيين على قلتهم في بلاد الإسلام لمواسمهم وأعيادهم بعامة وميلاد المسيح عليه السلام بخاصة، وانغماسهم في طقوسهم وبدعهم معهم، وإقبالهم الشنيع عليها بترقبها والسؤال عن مواقيتها وتحضير ما يلزم ويناسب لإحيائها كنصب الموائد لأبنائهم و نسائهم، وإعداد ما يناسب من الأنصاب والتماثيل، وشراء أصناف من التحف والهدايا، ومغالاتهم في الإنفاق، وهم في غمرة ذلك,في غفلة عمياء عن مولد سيد المرسلين **"محمد صلى الله عليه وسلم"**، بل إن أكثرهم لا يعقل أو يعلم لمولده يوما ولا شهرا و لا سنة[3].

ولعنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا أن الدواعي المسيحية التي دعت العزفي إلى سن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وجعله عيدا من أعياد الإسلام كانت بوجه من الأوجه الثقافية والدينية هي نفسها الدواعي التي دعت إلى الاهتمام بمولده في المنظومات المولدية فوظفت فيها الإرث الثقافي الذي نصّت عليه سيرته من شريعة بوصفها حقائق مادية وتاريخية ظاهرية، وذلك الذي نصّت عليه نظرية المعرفة الصوفية من أسرار النبوة بوصفها حقائق روحانية باطنية، لترسم بذلك في المولديات الشخصية المحمدية في رؤيتين: رؤية بشرية بمنظور الشريعة، ورؤية روحانية بمنظور الحقيقة.

وبذلك المنظور، فقد اجتمعت في مجمل المنظومات المولدية شريعة الفقيه بحقيقة الصوفي، وتوحدت الرؤية إليه فيها على أنه, **صلى الله عليه و سلم**، الأول في الخلق بوصفه حقيقة روحانية، والآخر في الظهور بوصفه حقيقة بشرية، وذلك ما أصبح يعرف في نظرية المعرفة الصوفية، (**بالحقيقة المحمدية**) تارة و(**بالنور المحمدي**) تارة ثانية، وبمسميات مرادفة(كالكلمة) و(القطب) و(الأول) تارة ثالثة، مما نجده متظاهرا في إشارات ورموز أغلب المولديات في صور مختلفة منها:

1- صورة الأول والآخر.
2- وصورة الصدور الأول والثاني.
3- وصورة وحدة الأديان السماوية.
4- وصورة الجلال و الجمال.
5- وصورة الكونين الناقص والكامل.
6- وصورة باب النجاة, وهي الصور التي تكون محاور هذه الدراسة.

وأما أعلام الشعراء الذين اتخذنا من مولدياتهم موضوعا لمدارستنا، فهم بعض الرجال الذين كانوا يجمعون في أغلبهم بين الأدب والفقه ممن يسمون عادة بالأدباء الفقهاء، وقد اختارهم واختار لهم الفقيه والأديب أحمد بن عمار الجزائري (ت1238هـ) في رحلته ممن كانوا ينشئون المنظومات المولدية وينشدونها بالمناسبة وهم: أبو حمو موسى نفسه (ت791هـ) سلطان دولة بني زيان[4]، ومحمد بن يوسف القيسي الثغري التلمساني، شاعر قصر المشور، المتوفى في أواخر القرن الثامن الهجري[5]، وأبو زكرياء يحيى ابن خلدون، كاتب الإنشاء بهذه الدولة[6]، وأبو عبد الله المنداسي التلمساني المتوفى نحو سنة1088هـ الذي كان شاهد عيان على سقوط دولة بني زيان في يد آل عثمان سنة957هـ واضطر للهجرة إلى المغرب خوفا من بطش العثمانيين[7]، وربما امتد اختيارنا مع ابن عمار في رحلته إلى ابن زمرك الفاسي الذي أنشد المولديات لبني

الأحمر ولبني زيان وإلى غيره من شعراء الدولة العثمانية في الجزائر, مثل ابن عمار نفسه.

1- صورة الأول و الآخر:

دأبت المولديات النبوية منذ مثال المنظومة الشقراطيسية على النظر إلى المولد النبوي الشريف على أنه مولدان: مولد روحاني في سر الأزل وغيبه، ومولد بشري في علن الحدوث وميقاته، وتتجلى تلك الرؤية في أكثر من جملة شعرية، وفي أكثر من إشارة وتلميح، فهو عليه الصلاة والسلام(عين الوجود فلولاه ما خلقت شمس ولا قمر) في منظور مولدية الشقراطيسي[8]، وهو **صلى الله عليه و سلم**: (المقدم والأخير) في منظور مولدية أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي التي أنشدها ليلة مولد سنة 760هـ, بين يدي السلطان أبي حمو حيث يقول[9]:

هو خاتم الرسل المكين مكانـــــــه وهو المقدم و الأخير زمانـــــــه

لولاه مـا وجد الوجود: سمـــــــاؤه وأرضـــه أو إنســـه أو جانـــــــــه

فجميع ما في الكون كان لأجله شرف الوجود بان فيه كيـانه

فدهر أفـق أحـــمد إصـــــــــــباحه والخلق جفن أحمد إنسانـــــــه

وهو عليه الصلاة والسلام (أول الأنبياء) في التخصيص بالنبوة و(آخر المرسلين) في البعث والظهور في منظور مولدية أبي زكرياء يحيى بن خلدون التي أنشدها بحضرة السلطان أبي حمو في الاحتفال بالمولد سنة778هـ حيث يقول[10]:

أول الأنبياء تخصيص زلـــفى آخـــــر المرسلين بعث نـجـــــــاح

صفوة الخلق أرفع الرسل وســراج الهدى وشمس

قدرا الفـلاح

وهو صلى الله عليه وسلم (آية الله وأنوارها) به ينجلي ظلام الشك، وتمّحي حجب الشرك، كما هو(المصطفى) قبل خلق الخلق وإنشاء الكون، بل قبل قدح أنوار الحق في الخلق، فلولاه ما أشرق للوجود وجود، ولا للأنوار نور، فهو حينئذ الأول في الخلق، والآخر في البعث، أو هو (فاتح الرسل وخاتمها الذي قدس الله سره مفتتحا وبارك إرساله ومبعثه مختتما، في منظور مولدية ابن زمرك الفاسي التي أنشدها بقصر المشور الزياني ليلة سنة767هـ حيث يقول[11]:

هــو آيــة الله الـتـي تجلـو ظلام الشك أي جـــــلاء أنوارهـــــــــــــــا

يا مصطفى والكون لم تعلق بـــــــــه من بعد أيدي الخلق والإنشـــاء

يا مظهر الحق الجلي ومطلع النـــ ـنـور الـسني السافر الأضـــــــواء

وحيث يقول أيضا في مولد ليلة عام768هجرية[12]:

يـا مصطفى وكمام الكـون ما فتـقت ومجتبى وزناد النور ما قدحـــــا

لـولاك ما أشـــرقت شمـس ولا قمـــــر لولاك ما راقت الأفلاك ملتمحا

صـدعت بالنور تجلـو كـــل داجـــــية حتى تبين نهـج الحق واتضحـــــا

يا فاتـــح الرسل أو يا خاتمها شـــــرفا بوركت مختتما قدست مفتتحا

وهكذا فإن هؤلاء الفقهاء الشعراء في هذه المجتزءات من منظوماتهم المولدية، قد أشارت كلها ولمحت، والشعر لمح تكفي إشارته، إلى أنها جميعا على وفاق في منظورها إلى مولده صلى الله عليه و سلم, على أنه مولد روحاني بداية قبل كل البدايات من منظور ثقافة الحقيقة

عند الصوفية، ومولد بشري نهاية, في ختام النبوات من منظور ثقافة الشريعة عند الفقهاء وهو بذلك: (المقدم والأخير) و(أول الأنبياء وآخر المرسلين)، ولولاه ما وجد الوجود، ولا كان للكون كيان، وهذه الإشارات هي الحاملة للمكونات المعنوية الأساسية البانية لجميع المولديات بلا استثناء، وبها ترتفع عند القراءة والتأويل إلى أجواء روحانية صوفية.

ومما لا شك فيه هو أن هؤلاء الأدباء الفقهاء, قد استمدوا تلك الإشارات والتلميحات الروحية من نظرية المعرفة الصوفية التي تفرق في أحد جوانبها بين (محمد) عليه صلاة الله وسلامه بوصفه بشرا حادثا, تنزل عليه الوحي السماوي في زمان ومكان معلومين في عالم الشهادة, وبينه بوصفه نورا أو حقيقة روحانية في عالم الغيب وأول ما انبثق من الواحد الأحد من تجليات إلهية, في صورة (الحقيقة المحمدية) أو (النور المحمدي), وذلك بعد أن كان سبحانه وتعالى (كنزا مخفيا فأحب أن يعرف فخلق الخلق ليعرفوه)[13]، فكانت تلك (الحقيقة المحمدية) أول ما خلق الله، وأول من عرفه فأحبه بلا علة، وظلت تلك الحقيقة أو النور المحمدي مددا للخلق أجمعين، بوصفه قابلا والنور فيه فاعلا، كل بقدر وبحسب صفاء قابله ومجلاه، وأظهر الخلق في ذلك الأنبياء والمرسلين إلى أن سطع ذلك النور المحمدي في قابل خاتم الأرسال محمد صلى الله عليه وسلم، أقوى القوابل احتمالا لذلك النور، وأصفى المجالي وأنقاها وأطهرها سطوعا كاملا ونهائيا[14], وهو بذلك يعد الأول في حسبان الخلق بوصفه (حقيقة محمدية)روحانية، وآخر الأنبياء والرسل في حسبان الظهور والبعث بوصفه (حقيقة بشرية)مادية، ولذلك فلا نبي أو رسول بعده وهذه في حد ذاتها معجزة قائمة بذاتها إلى يوم الدين.

2- صورة الصدور الأول والثاني:

يستتبع القول بثنائية(الأول/الآخر) القول بثنائية (الصدور الأول/الثاني) في الخلق والإيجاد، وقد يسمى في الاصطلاح الصوفي

بفيض ممكنات الوجود عن واجب الوجود، وهو أن أول ما صدر عن واجب الوجود، أو الواحد الصمد هو(الحقيقة المحمدية) أو (النور المحمدي) أو (القطب) أو غيرها من الاصطلاحات المترادفة[15]، ويعد ذلك أول ظهور له سبحانه وتعالى بعد بطون،وهو بذلك (الباطن/الظاهر)، الباطن بوصفه(حقيقة إلهية)، والظاهر بوصفه (حقيقة محمدية)، ومن ذلك الظهور الأول, الذي كان في صورة (النور المحمدي) تكاثر الظهور وتعدد، ومنه استمد الوجود وجوده، أي إنه (عين الوجود ومصدره)، وهو ما يسمى بالصدور الثاني أو الظهور الثاني أو الفيض والخلق الثان، فلولا الصدور الأول في صورة (الحقيقة المحمدية) لما كان الصدور الثاني في صورة حقائق ممكنات الوجود وبالتالي لما كان في عالم الأعيان وجود.

ومن الممكن قراءة هذه الرؤية الصوفية في أكثر من إشارة وتلميح في أكثر من مولدية من ذلك مولدية سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني التي نجتزئ منها بعض قوله فيها[16]:

عين الوجود, المزمل الذي ظهـــــرت — من غرته قبل بعثـــته تبـــاشيـــــر

من سبق الرسل عـند الـــله في أزل — فضلا, وللخلق بعد الرسل تأخير

وأعجب لأصل عظيم القدر نشــأته — بعد الفروع, وقبـل الكل مذكـور

لولاه ما خلقت شمــس ولا قـمـــــر — ولا نـــهـار ولا ليـــــــل ولا نـــــــــور

فقد أشار فيها المنداسي ولمح إلى أنه صلى الله عليه و سلم(عين الوجود)، وإلى أنه (أول الأنبياء وآخرهم)، وإلى أنه مثار للعجب في كونه (أصل في الصدور وقبل الكل مذكور غير أن نشأته كانت بعد

الفروع!)، وأنه عليه الصلاة و السلام لولاه ما خلقت شمس ولا قمر ولا نهار ولا ليل ولا نور, وبالتالي ولا لعالم الشهادة كيان أو وجود.

ومؤدى ذلك كله، في السياق الصوفي أنه صلى الله عليه وسلم,كان الأول في الصدور والآخر في الظهور، غير أن أول صدور له أو ظهور كان في صورة روحانية هي (الحقيقة المحمدية)، وأن آخر صدور له أو ظهور له كان في صورة (حقيقة بشرية)؛ أي محمد الإنسان صلى الله عليه و سلم وقد ظلت الحقيقة المحمدية مصدرا لصدور كل الحقائق في عالم الإمكان والأعيان كل بحسب استعداده لما يحتمله من تلك الحقيقة والنور هي في الأنبياء والمرسلين أظهر منها في غيرهم، وهي في الأنبياء والمرسلين والأولياء على تفاوت فيما بينهم إلى أن تجلت تلك الحقيقة تجليا كاملا في مجلى محمد، وقابله صلى الله عليه و سلم الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله البشرية فكان بذلك سيد المرسلين أجمعين.

وقس على ذلك الإشارات والتلميحات الصوفية التي وردت في أكثر من مولدية مما ندارس منها ما جاء في مولدية أبي زكرياء يحيى بن خلدون التي أنشدها ليلة المولد سنة770هجرية, و التي يقول فيها[17]:

نبـــي كريم للرسالـة خـــــــــــــاتم ... مطاع لدى ذي العرش ثم أمـين

وسـر وجـود العـالمين وأصـــــــــــلـه ... وغـايـته, بالكـل عـــــنه يـبيـــــن

وما هو إلا سيد الرسل كلهـــــــم ... وأولاهـم بالفخـر حيـث يـكـون

وأفصلهم خلقا و خلقا ومـــــحتدا ... وأكملـهم ذاتا وذلك يقـــــــين

وهـل يدرك المـداح غاية فضلـــــه ... وفي الغيب سـر مـن علاه مصون

3- صورة وحدة الأديان السماوية:

ويتصل بوحدة صدور الخلق من(عين الوجود) وسره الذي هو (النور المحمدي)، مما سبق يتصل بذلك ويتبعه صورة (وحدة الأديان السماوية)، فكل الأديان المنزلة على الأنبياء والرسل قبل بعثة محمد الإنسان عليهم الصلاة والسلام كان مصدرها الذي صدرت عنه واحد هو (بحر النبوة)المحمدية، أو هو(الحقيقة المحمدية)، فكل الأنبياء جاءهم مدد نبواتهم وحقائقها الدينية من(حوضها المورود) الذي لا مورد لهم سواه.

ولذلك فمحمد صلى الله عليه و سلم, يوصف في أغلب المولديات التي ندارس بأنه صاحب (الحوض المورود)، وأنه إمام الرسل والأنبياء كلهم، لأنه صاحب تلك الحقيقة الروحانية التي كانت أول ما صدر وآخر ما ظهر، وهو خير من تجلت في قابله البشري تلك الحقيقة الروحانية عند بعثته، وهو خير من عرج به إلى السماء بسبب ذلك، ووصل في عروجه إلى(سدرة المنتهى) التي ما بعدها مقام في القرب من الحقيقة المطلقة المنزهة عن كل تشبيه.

ولما كان ذلك أو شبهه كذلك، فقد أمّ صلى الله عليه وسلم كل الأنبياء والرسل من آدم إلى عيسى وكلهم قد صلى خلفه بسبب وحدة أديانهم ومصدرها، وإن كانوا هم مصابيح الملل والنحل في أممهم، فإن محمد صلى الله عليه وسلم, بسبب(حقيقته الروحانية) هو مصباح مصابيح تلك الملل كلها وبذلك فإن صاحب (الحوض المورود) قد سبق الجميع في الصدور بوصفه حقيقة روحانية ولحكمة إلهية تخلف عنهم في الظهور بوصفه (حقيقة بشرية)، ومما أشارت إليه المولديات من ذلك ولمحت، قول المنداسي في إحدى مولدياته[18]:

آدم المبـــرور صلـــى وأولـوا العزم مـصابيح
خلـــــــــــفه الملـــــــــل
صفوة الرحمن نوح من بوحي الله في الفلك انتـقل
المنـــــتقى

وخلـــيل الله إبـراهيـــــم من ـــــــن
بقميص الـعز في النـار رفـــــــــــل
وكليم الله موسى المجتـــــبى من له الـحق تجلى في الجبـــــل
ثم روح الله عـيســـــى من لـــــه
آية النـطق لـدى المهد فصـــــــــــل

ومن ذلك الإشارات والتلميحات التي أشار بها أبو عبد الله القيسي التلمساني في مولدية أنشدها ليلة عام ثمان وستين وسبعمائة في المشور إلى الإسراء والمعراج، وإلى المبلغ الذي بلغه مما لم يبلغه قبله نبي مرتسل، بل وإلى تبعية الأنبياء عليه وعليهم صلاة الله وسلامه في عالم كله روحانية لا قيد فيه بمكان ولا زمان، مما نحصي ونعد في عالمنا الدنيوي فكان مما قاله فيها[19]:

وأسرى به ليلا إلى حضرة العلى فشاهد فيها كل ما كان خافيا
دنا فتدلى قـــاب قوسين رفعـــــة وقربا فأمسى للحبيب مناجيـــــا
وآدم لما خاف يجزى بـذنبـــــــــه تـوســـــل بالمخـــتار لله داعـــيـــــا
فتـاب عليه واجتباه وخصـــــــــه وأدناه منه بعدما كان نائـــــــــيا
وأدرك موسى في المناجاة رعيـــه فكلمه الله العظيـم مـناجـــــــــيا
وما الرسل إلا كـالمبادي لـغايـة المبـــــاديا هو الغاية القصوى أتم

4- صورة الجلال و الجمال:

الجلال والجمال صفتان مرتبطتان بالتجليات الروحانية للذات العلية وبأثرهما في المتجلى له والتجلي الروحاني في المعرفة الصوفية قد تم في مرحلتين كما سبقت الإشارة إليه باسم الصدور والفيض: الأولى مرحلة التجلي الأقدس، والثانية مرحلة التجلي المقدس[20]، ففي المرحلة الأولى تم تجلي أو تخارج الحضرة القدسية العلية في صورة (الحقيقة المحمدية)[21]، وهي المرحلة المعروفة عند بعض القوم: (بأول مراتب ظهور الحق لنفسه)[22]، وفي المرحلة الثانية تم تجلي (الحقيقة المحمدية) في صورة الحقائق الوجودية، وهي المرحلة المعروفة عند بعض القوم أيضا: (بالتجلي الوجودي، أو تجلي الواحد في صورة الكثرة الوجودية[23]، وهو المعنى الذي أطلق عليه شعراؤنا في مولدياتهم اسم: (عين الوجود) و(سر الوجود) و(الأول) في الخلق, و(لولاه) لما كان للوجود وجود، وغيرها من الإشارات الدالة على (الحقيقة المحمدية) أو(النور المحمدي).

وخلاصة ذلك، هو أن التجلي الأقدس أفضى إلى ظهور الحق بنفسه لنفسه، في صورة (الحقيقة المحمدية)، وأن التجلي المقدس أفضى إلى ظهور (الحقيقة المحمدية) بنفسها في صورة الحقائق الوجودية أو الخلق بوجه عام.

وإذا كان ذلك كذلك، في منظور المعرفة الصوفية فإن فيها أيضا أن تجلي الحق سبحانه وتعالى في صورة روحانية محمدية يكون تارة بنعت صفاته الجلالية وتارة أخرى بنعت صفاته الجمالية، فكشف جلاله يوجب نعوت الهيبة، والوقار، والجبروت، والقهر، وما شابهها. وكشف جماله يوجب نعوت الرحمة، واللطف، والإحسان، وما شابهها[24], وذلك أيضا هو ما تجلت به (الحقيقة المحمدية) من نعوت في ممكنات الوجود كل بقدر، إلى أن تجلت بنعوتها في محمد الإنسان تجليا كاملا، فأحق الحق بنعوت جمالها وأبطل الباطل بنعوت جلالها.

في هذا السياق من المعرفة الصوفية، يمكن فهم ما تواتر في مولديات شعرائنا من نعوت يرجع بعضها إلى صلتها بتجليات جمال (الحقيقة المحمدية)، وبعضها الآخر إلى صلتها بتجليات جلال تلك الحقيقة الروحانية في مجلى النقاء والطهر والصفاء، وقابل محمد الإنسان عليه الصلاة والسلام وأثرهما فيه وفي العالم وكائناته من حوله، فهو الإنسان الكامل الذي اكتملت تجليات تلك الحقيقة بنعوتها الجلالية والجمالية على مجلاه وقابله.

وعلى ضوء ذلك السياق أيضا يمكن قراءة المنداسي التلمساني – مثلا-وفهمه، عندما أنشد في مولودية له نعوت الحسن، والرحمة، والحق، والصدق، مما تحلى به إذ تجلى له في بدره من نعوت جمال تلك الحقيقة, وأثر ذلك في مجلاه, وفي مجالي قوابل العالم من حوله, قائلا(25):

هل رأيتم أو سمعتم حسنا ... في الورى من حسنه الحسن اكتمل
كالرسول العربي أكرم به ... من مذ بدا الشرك اضمحل
أحمد المبعوث فينا رحمة ... خير من قام بحق وكفل
آية الله أمين صادق ... وحبيب الله بر منتضل
قد تحلى إذ تجلى بدره ... بابها من ربه عز وجل

كما أنشد في مولدية أخرى له نعوت الجمال الباهرة التي غمرت العالم يوم مولده بالفرح والسرور والرحمة، ونعوت الجلال القاهرة التي جعلت الباطل ممثلا في إيوان كسرى ينقض ويخر على قواعده, ونار المجوس تخبو وتنطفئ بعد أن ظل لها وسط الفرس تسعير قائلا(26):

يا غرة ضحك السعد لطلعتـــــــها كما استضاءت بضوئها التباشيـر
وراحـة بالمنــى كـأنما نــثـــــــــــرت على عروس الهدى منها دنانـــــــــير
بات السرور يعاطي الكون صهبـــته وللنفوس قبيل الفجر تكـــبيـــــــــر
إذا تغنى الحجاز وانثنى طــربـــــــا تكـــاد ترقص من تهامة الـــــــــدور
فانقض إيوان كسرى عند مولــده وخبا من نار وسط الفرس تســـــعير

كما يمكن قراءة القيسي التلمساني وفهمه عندما أشاد في إحدى مولدياته بنعوت الأسرار الجمالية التي أشرقت أنوارها في مجلى خاتم الأرسال في ليلة المولد النبوي الشريف فجلا بجمال هداه كل هداية ورحمة، وبجلال سناه كل ضلالة وظلام, قائلا[27]:

سر الوجود وصــفة اللــه الذي ختمت به الأرسال خير ختـــــــام
في ليلــة الاثنين أشـــــرق نوره بأجـــــل شهر أو بأسعـــد عـــــــام
أبدى لنا من هديـــه و جـــبـينه نورين: شمس ضحى و بدر تمـــام
فجلا بنور هداه كل ضـــلالـــه وجلا بنور سناه كـــــل ظـــــــلام

وشعراء المولديات على وفاق في تكرار مظاهر تجليات جلال الحقيقة المحمدية في أطهر المجالي ليلة المولد وأثرها في تداعي أركان الباطل، وقيام أركان الحق في الكون مثل ميلان البيت الحرام بأركانه

طربا، واهتزاز إيوان كسرى وتصدعه على قواعده، وخمود نار الفرس بعد أن ظل سعيرها مشتعلا من ألف عام، وجمود ماء بحيرتهم المقدسة وسقوط تاج الملك كسرى، وسجوده صلى الله عليه و سلم على يديه عند المولد، وشق جبريل لصدره ليسل منه علقة سوداء من قلبه، وانشقاق القمر نصفين أو أشطارا عند بعضهم، ورؤيته بعينيه من قدام ومن خلف، وغير ذلك مما هو من خوارق العادة، مما يمكن وجود سند لبعضه في الأثر، ومما يمكن أن يكون بعضه من مبالغات الشعراء وتشيعهم لموضوعهم وانحيازهم له، ومن ذلك على سبيل المثال: ما أنشده أبو عبد الله يوسف القيسي ليلة المولد سنة ستين وسبعمائة فقال[28]:

رسول كريم خاتم الرسل كلهم ... وأعظم من تتلى إليه الرسائل
بدا فانجلى ليل الضلالة ... وراح به ما زخرفته
بالهدى ... الأباطيل
وعم جميع الخلق علما ... فلم يبق في الجهالة جاهل
وحكمة
وأجرى لهم من كفه الماء ... لينبوع ماء أنبطته الأنامل
فأعجبوا
كما در ضرع الشاة وقت ... له لبنا رغدا به الضرع حافل
جفوفه
وحن إليه الجذع عند ... حنينا كما حنت من الفقد ثاكل
فراقه
إذا الله رد الشمس بعد ... إليه, وشق البدر والبدر كامل
غروبها
فكل جلال دونه ... وكل جمال عنده متضائل
متقاصر

5- صورة الكون الناقص / الكون الكامل:

وربما كان من أهم ما يثير الانتباه حقا ويشده في جميع المولديات هو أسلوب بنائها الذي عادة ما يبنى من جزأين متقابلين متوازيين يختص بناء فيها بالذات المحبة الناقصة ما يمكن نعته بالكون الناقص في الذات والصفات والأفعال، ويختص بناء آخر فيها بالذات المحبوبة التي قد تكون الذات العلية المطلقة، وقد تكون الذات النبوية الكاملة، وقد تكونان معا في تراتب من الأقدس إلى المقدس، ما يمكن نعته بجزء الكون الكامل في الذات والصفات والأفعال.

فالجزء الخاص بالكون الناقص من بناء المولدية عادة ما ينسج من بنية دلالية منطقية تعبر فيها الذات الناقصة عن نقصانها فتعترف فيها بحظوظها البشرية وانغماسها في مباذل الحياة الدنيوية، وتقصيرها في اكتساب الكمالات الحقانية فتطنب في الاعتراف وتوغل حتى إنها تجلد ذاتها بذاتها، وتلتمس لذلك الأعذار، وتستحضر الموانع القاهرة التي كانت سببا في إلهائها عن اكتساب الفضائل والكمالات فيكون ذلك مدعاة لها إلى التوسل والاستغاثة إلى الله بالذات النبوية الكاملة في حيز قصير من المولدية, سنعود إليه لاحقا.

والجزء الآخر الخاص بالكون الكامل,في بناء المولدية عادة ما ينتسج من بنية دلالية منطقية مباينة للسابقة تمجد فيها ألوهية الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، كما تمجد فيها الذات النبوية في كمال جمالها وجلالها ووساطتها لكل ساع في درب المحبة الإلهية إلى الخلاص والنجاة من عالم الحظوظ البشرية إلى عالم الحقائق الروحانية فيطنب المنشد في تمجيده ويوغل في المعاني حتى يخرج فيها من المعلوم إلى المغيوب، ومن الشريعة في ظواهر الأثر إلى الحقيقة في بواطنه، وهما الجزءان الرئيسيان في بناء المولدية.

ثم عادة ما تختتم المولديات باجتماع الكون الناقص إلى الكون الكامل، اجتماع توسل واستغاثة في حيز من المولدية قصير إن شئنا سميناه جزءا ثالثا تتضرع فيه الذات المحبة للجناب المحمدي وآله إلى

الذات العلّية متوسلة بواسطة الذات النبوية أن تخرج ناجية من عالم الحظوظ الدنيوية إلى عالم الحقوق الروحانية الأخروية وتنتهي بالصلاة والتسليم.

وإذا كان المقام لا يسمح لنا بعرض أكثر من مقال شعري لما حاولنا وصفه من أسلوب في بناء المولديات بناء ثنائيا متقابلا, فإنه قد يكفي في توضيح ذلك نموذج واحد اجتزأناه من إحدى مولديات أبي حمو موسى الثاني(ت791هـ) التي نظمها احتفالا بمولد عام 766هـ, وهو نموذج قد يختلف قليلا أو كثيرا في نسيجه الداخلي عن غيره، ولكنه لا يخرج عن المنوال الواحد الذي درجت المولديات على الانبناء عليه إلى جزأين متقابلين ومتباينين ومتوازيين الكون الناقص عن الكون الكامل, أو العكس.

ويضم هذا النموذج:جزء الكون الكامل: الذات العلية ثم الذات النبوية في بداية المولدية, يليه جزء الكون الناقص: الذات المحبة بعده, لتختتم في النهاية باجتماع الكونين الناقص إلى الكامل اجتماع توسل واستغاثة طلبا للفوز والنجاة، والتي نجتزئ منها بعض قوله فيها[29].

يا من يجيب ندا المضـــطر في الديـــــــــــج ويكشف الضر عند الضـيق والحـــــــــــرج

يا كاشف الضر عن أيـــــــوب حـــــين دعـــا قد مسني الضر فاكشف كرب كل شجي

يا من وقـــى يوســـف الصديق كـــــــل أذى لمـــا رمـــــــوه بجـــــب ضـــــيق حـــــــرج

يا من كفى المصطفى كيد الأولى كفروا إذ جاءهـــم بكتـــــــاب غيـــــــر ذي عـــوج

يا من وقاـــــــــه الـــــردى في الغار إذ نسجت ببـــــــابه عنكبـــــوت خـــــير منتـــــســـج

وكـــلما حـــاولـــوا مكـــــــرا بـــــه بالرعـــــــب ما بـــــين مكبـــوت

انقلـــبوا ومنزعـــج
من قـــــد أتى رحمة للعالميـــن أحيـــا القلـــوب بوحـي واضح الحجج
وقـــــد
من عطـر الكون طيـــبا عـــند مولـــده وأشـــرق الأفـــــق من دور له بهـــج
محمد خيـــر خلـــق اللـــه نـــور الهـــدى و إمـــام الرسل و السـرج
قاطـــبـــة
يا حادي العيس عـــرج نحـــو بالله عـــج بـــي على ذاك المحـــل عـــج
أربعـــه
للـــه قوم إلى مغـــناه قـــد بالعـــزم إذ وصـــلوا الروحـــات بالدلـــج
وصـــلـــوا
ســـاروا فـتتزاروا وفرط الذنـب أقعدني وقـــد مزجـــت بدمـــعي كل مـمتزج
فالجم منتحـــل والدمـــع والقلـب مشتعـــل من حـــره الوهـــج
منـــهمـــل
قد ضـــقـــت ذرعـــا بـــزلاتـي فـــما اعتـــذاري إذا طولبـــت بالحجـج
وكثرتـها
وكـــم قـــصعت من الأيـــام في لعـــب وفي ضـــلال وكـــم ضيـــعت مـــن حجـــج
وفي البـطالة لهـــوا قـــد مضـــى عمـــري آه لتـضيـــيعه في اللـــهو والمـــرج
يا رب عبـــدك موســـى قـــد دعاك عســـى تنيـــله نفحـــة مـــن نـصـــرك الأرج
إني أسألـــك بالســـر الـــذي ارتفعت بـــه الســـماوات والأرضـــون لم تـمـــج
أصلح بفضـــلـــك ما قد كـــان مـــن خلـل واجبـــر بحـــلمك ما قـــد بـان من

عـــوج

واجعل لنـــــــا مخرجـــا في إثـــــــره فكـــــــم تعامـــل بعد الضـــــــيق فـــــــرج بالـــفـــرج

وصل صـــــلاة علـــى المختـــار مـــــن ما لاحـــــت الشـــهب في الآفـــق مضر كالسرج

ونرى أن هذا الأسلوب التقابلي في بناء المولديات النبوية هو عبارة عن(علامة كبرى) لها وظيفتها الدلالية الصوفية بغض النظر عن التفاصيل الدلالية المنطقية التي تنتجها التراكيب اللفظية في كل شق أو جزء منهما، والتي تتفاوت من مولدية إلى أخرى في مراميها بين معاني الشريعة والحقيقة فالجزء الخاص بالكون الناقص هو علامة على انبناء الذات المحبة للمشهود، انبناء مقام فرق وفصال عن الجزء الخاص بالكون الكامل المطلق منه والمقيد الذي يعد بدوره علامة أخرى مقابلة لكن على انبناء الذات النبوية الكاملة للمغيوب انبناء مقام جمع وقرب ووصال بالحقيقة المطلقة.

وبذلك التقابل بين الكونين في جميع المولديات النبوية فإن النظمة يقصدون بنظامه والتزام منواله إلى حفر فجوة عاطفية عميقة بين الكونين المتباينين حقيقة وشريعة، وتزداد عمقا كلما بالغوا في تصوير نقص الناقص، وكمال الكامل فجوة تعد بحالها منبعا ثرا لشعرية المولديات بلا منازع[30]، ذلك لأنها تبتعث لوحدها, من نفس المتلقي من مشاعر العطف والشفقة على المفصول بمقدار ما تبتعثه من نفسه من مشاعر الإجلال والإكبار والإعجاب على الموصول، وتثير في الوقت نفسه مشاعر التغيير في كل كون ناقص غافل ساه، كي يعمل على التوبة مما هو عليه من حظوظ، والأوبة إلى ما ينبغي أن يكون عليه من حقوق مجسدة في مثالية الإنسان الكامل بوصفه قابلا كامل الأوصاف لفاعل روحاني هو الحقيقة المحمدية، وحينئذ فإن رسالة التغيير التي يحملها

ويبلغها أسلوب التقابل بين كونين في المنظومات المولدية تتم وفق مثالية أزلية ثابتة, لا وفق أهواء متغيرة حادثة.

6- صورة باب النجاة:

نعود إلى الجزء الأخير من بناء المولدية الذي كان بالإمكان أن نسميه جزءا ثالثا لو كان قائما بذاته، وهو الجزء الذي ينتهي إليه جميع ناظمي المولديات بعد أن يستنفدوا القول في تصوير الكون الناقص مقابلا لتصوير الكون الكامل انتهاء توسل واستغاثة, طلبا للنجاة بالرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم إلى الله سبحانه وتعالى لنلتمس فيه جانب الإشارة إلى الرؤية الصوفية.

فهم عندما يتوسلون بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الله سبحانه وتعالى إنما يتوسلون ظاهريا بجاهه وسمو منزلته وقدره عند الله، وباطنيا بحقيقته النورانية المتجلية في آخر أدوارها في صورته البشرية، فهو بذلك (النور المحمدي) باب للصدور كما أنه (باب) للعودة والنجاة إلى المغيوب لمن رام الفرار من المعلوم[31] ، أو الواقع الحرفي الزائل، فمن لجأ إليه واستجار به واستغاث فقد لجأ إلى العروة الوثقى وإلى صلة الوصل, وإلى واسطة السلوك بين الحقيقة المطلقة التي لها الحكم من قبل ومن بعد والحقيقة المحمدية عين الوجود ومنبعه ومرده إلى بارئه بعد أن يكتسب الكمالات في سعيه وشقائه في عالم الشهادة.

فكما أن المولديات لا تخلو من التصريح أحيانا والتلويح أخرى، إلى أن باب الصدور يتم عن طريق (الحقيقة المحمدية) فإنها لا تخلو كذلك من التصريح تارة والتلويح أخرى إلى أن باب الأوبة إلى الحق سبحانه وتعالى مسدود في وجه الأرواح البشرية ما لم تؤب من باب بحر النبوة، وهي المعاني التي غالبا ما تتظاهر, في جزء التوسل والاستغاثة كما هي كذلك في قول سعيد المنداسي التلمساني[32]:

أنـــت باب الله للـــدار التـــــــــــي لم يفز من لا لها منك دخـــل

يا حبيب الله من لي بالـــــرضى إن لـــي بـالباب نحـبا وجـــــــأل
فانتصر إن ذنـــــوبي كتـــــــرث قيدت عزمي الخطايا و الكسـل
ما ذنـــــوبي إن تجلى فضـــــلكم يا رســـول الله غث عبدا حصـــل
صـــــل يا رب على من بـاســـــمه يقـــبل الله من العبد العمـــــــل

وخلاصة القول: هو أن المولديات النبوية انبنت في صميمها على رؤية صوفية نظرت إلى الرسول المكرم على أنه أول حقيقة روحانية خلقها الله في أول تجليه لذاته، وتخارجه في صورة الحقيقة المحمدية، وظلت تلك الحقيقة منذ الأزل تمد الوجود بماء الحياة، كل بقدر إلى أن تجلت أخيرا في صورة الخاتم عليه الصلاة والسلام وقابله تجليا كاملا[33].

ولذلك فإن مظهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف هو في حد ذاته احتفال واحتفاء بتجلي النور المحمدي الذي تم يومئذ وتمجيد له، كما هو احتفال أيضا بمولد طريق النجاة وسبيل الخلاص إلى الله الذي كان الطريق إليه ضائعا، والذي أصبحت محجته البيضاء واضحة للعالمين, ولذلك فقد تم في المولديات تفضيل المولد النبوي الشريف على ليلة القدر[34]، لأنها خلقت له وهي جزء من كل بينما مولده يعد دولة الوصال والمخلص الوحيد من الانفصال لكل ذات تسعى للتوبة والأوبة من العالم المادي إلى العالم الروحاني، وإن لم يكن أصحاب المولديات في أغلبهم من المتصوفة فإنهم إنما وظفوا في نسيج معانيها كل ما أنتجته الثقافة الدينية حول سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ظاهرية كانت من منظور شريعة الفقهاء، أو باطنية من منظور حقيقة الصوفية.

هوامش الدراسة:

1- انظر: رحلة العبدري, لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري:45, تحقيق: محمد الفاسي, الرباط:1968, ورحلة أحمد بن عمار الجزائري: 118-124, تحقيق محمد بن شنب, مطبعة فونتانا, الجزائر:1903.

2- انظر: رحلة ابن عمار الجزائري:118-129,198 وانظر: د. عبد الله حمادي, دراسات في الأدب المغربي القديم:221، 222، 228، 232، وما به من مصادر, مطبعة دار البعث, بقسنطينة, الطبعة الأولى, الجزائر:1986.

3- انظر: د. عبد الله حمادي, دراسات في الأدب المغربي القديم: 228 عن: العزفي الدر المنظم (مخطوط):7.

4. انظر:رحلة أحمد بن عمار, ود. عبد الحميد حاجيات, أبو حمو موسى الزياني:حياته وآثاره, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر: 1974.

5- انظر:رحلة أحمد بن عمار, ومحمد بن عبد الله التنسي, تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر والعقيان, تحقيق محمود بوعياد, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر: 1985, ويحيى بن خلدون, بغية الرواد في ملوك بني عبد الواد (الجزء الأول) تحقيق عبد الحميد حاجيات, الجزائر:1980.

6- انظر:رحلة أحمد بن عمار الجزائري.

7- انظر: ديوان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي, تحقيق وتقديم رابح بونار, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر:1976.

8- انظر: رحلة ابن عمار:117 في(القصيدة الشقراطيسية).

9- رحلة ابن عمار:132.

10- رحلة ابن عمار: 156.

11- رحلة ابن عمار: 204.

12. رحلة ابن عمار:208.

13.نص الحديث القدسي:(كنت كنزا مخفيا,فأحببت أن أعرف, فخلقت الخلق ليعرفوني) كما يرويه جل الصوفية في مظانهم النظرية المختلفة, منها فصوص الحكم لابن عربي.

14- انظر:تفصيل ذلك, في:نص رسالة لابن عربي, محققة ومنشورة في مجلة: البلاغة المقارنة:ألف, عدد:5 ربيع1985 ص:20, تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

15. انظر: ما يزيد منها عن عشرة مصطلحات مترادفة, لحقيقة واحدة: أبو العلا عفيفي, نظرية الإسلاميين في الكلمة (بحث) منشور في:مجلة كلية الآداب (المصرية) المجلد الثاني, الجزء الأول, مايو 1934, ص:48.
16. ديوان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي:69-73, تحقيق رابح بونار, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر:1976.
17.رحلة ابن عمار:145.
18. ديوان المنداسي التلمساني:43, الأبيات (80-88)بانتقاء.
19. رحلة ابن عمار:139, بتصرف في انتقاء الأبيات.
20. انظر تفاصيل ذلك: ابن عربي, فصوص الحكم:9/2 تحقيق أبو العلاء عفيفي, دار الكتاب اللبناني, بيروت, ط. الثانية:1980.
21. انظر مترادفاتها, مثل: النور المحمدي والكلمة, وروح محمد والعقل الأول والعرش, والروح الأعظم, والقلم الأعلى والخليفة والإنسان الكامل, وآدم الحقيقي, وأصل العالم والحق المخلوق به وعين الوجود الخ ..أبو العلاء عفيفي, نظرية الإسلاميين في الكلمة ص:48,(سبقت الإشارة إليه).
22. انظر: عبد الرحمن بن خلدون, شفاء السائل لتهذيب المسائل:59, تحقيق محمد بن تاويت الطنجي, اسطنبول:1957.
23. تعليقات أبو العلا عفيفي على فصوص الحكم: 9/2.
24.انظر:حسن الشرقاوي, معجم ألفاظ الصوفية:106, مؤسسة مختار للنشر والتوزيع: ط. الأولى, القاهرة:1987.
25. ديوان المنداسي:40.
26.ديوان المنداسي:68.
27. رحلة ابن عمار:140.
28.رحلة ابن عمار:135(بانتقاء).
29. عبد الحميد حاجيات, أبو حمو موسى الزياني: حياته وآثاره: 364, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع,الجزائر:1974.
30. في علاقة الفجوة بالشعرية والأدبية, انظر: كمال أبو ديب, في الشعرية, مؤسسة الأبحاث العربية, ط.الأولى, بيروت, لبنان:1987.
31.في اصطلاح(المعلوم) و(المغيوب) انظر: مطاع صفدي, استراتيجية التسمية والانبناء للمجهول والانبناء للمغيوب, بحث في مجلة الفكر العربي المعاصر, ص4 وما بعدها, العدد:29.
32- ديوان المنداسي:44 (الأبيات:102-106) وانظر مثل ذلك في رحلة ابن عمار:للقيسي ص:138, ولأبي حمو ص:137 ولابن خلدون ص:151.

33- انظر: تعليقات: أبو العلا عفيفي على فصوص الحكم:319/2.
34- انظر: رحلة ابن عمار: 101, قيل في ذلك: «لأن ليلة المولد ليلة ظهوره صلى الله عليه وسلم, وليلة القدر معطاة له».